معاني الاستفهام البلاغية وأثرها في انسجام النص القرآني
سورة هود أنموذجاً

م.د. أحمد جاسم مسلم
الكلية التربوية المفتوحة/ مركز بابل

The Meaning of the Rhetorical Questions and their Effect in the Harmony Of the Quranic Text
The Surah of Hood as an Example

Lect. Dr. Ahmed Jasim Muslim
The Opened Educational College/ Babel

Abstract

This research tries to introduce a special vision about the relationship between rhetoric and text linguistics; as well as the impact of the different rhetoric investigations; the research focused on the question style, which is one of the investigations of semantics in Arabic rhetoric; and this style effects on unison of Quranic text, the study of rhetorical purposes that goes out of its question and its importance in the unison of Hud Surat as important semantic relationships which share with other relationships to reveal the required unison script in this precious Surat.

The research was included three parts; the first part spoke about the question style of the Holy Quran in general; the second part explained the concept of unison text as criterion of text linguistics criteria; the third part was an application study on Hud Surat which tried to reveal the effect of the meanings of rhetorical question in the unison of the precious Surat.

الملخص

يحاول هذا البحث أن يقدّم رؤية خاصة عن العلاقة بين البلاغة واللسانيات النصية، وأثر مباحث البلاغة المختلفة في تماسك النصوص، وركّز البحث على أسلوب الاستفهام الذي يعدّ من مباحث علم المعاني في البلاغة العربية، وأثر هذا الأسلوب في انسجام النص القرآني، ودراسة الأغراض البلاغية التي يخرج لها الاستفهام وأهميتها في انسجام سورة هود، بوصفها علاقاتٍ دلالية مهمّة تشترك مع غيرها من العلاقات لتحدث الانسجام النصي المطلوب في هذه السورة الكريمة.

وكان البحث على ثلاثة محاور، الأول تحدّثت فيه عن أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم بشكلٍ عام، والثاني بيّنت في ضوءه مفهوم الانسجام النصي بوصفه معياراً من معايير اللسانيات النصيّة، والمحور الثالث كان دراسة تطبيقية على سورة هود حاولت في ضوءها بيان أثر معاني الاستفهام البلاغية في انسجام هذه السورة الكريمة.

المقدمة

أثبتت اللسانيات النصيّة أهميتها في الكشف عن أسرار النصوص، فالنص– على وفق ما ترى– عليه أن يتسم بمعايير سبعة ليكون نصّاً، وبذا انتقل الحديث عن التراكيب الجملية والأسلوبية إلى الحديث عن النص بشكلٍ عام، ومن هذه المعايير الانسجام الذي يهتمّ بالتماسك الدلالي والعلاقات الدلالية داخل النص نفسه، واقتران هذه العلاقات مع بعضها ومع البنية الدلالية الكبرى للنص، لتحقّق الانسجام النصي المطلوب.

ولا شكّ أن البلاغة تعدّ من أهمّ العلاقات المؤسسة للنصوص لو درست على مستوى النص، وهي من الممكن أن يكون لها أثرٌ كبير على مستوى البنيتين السطحي والعميق، فتنوّع مباحثها واتساعها يجعل منها علاقاتٍ مهيمنة مؤثِّرة، وبذا لايمكن إغفال دراستها لبيان أثرها في تشكيل النصوص وبنائها.

وسعى هذا البحث من أجل الكشف عن العلاقة بين البلاغة وعلم النص، بدراسة معاني الاستفهام البلاغية في سورة هود، وأثر هذه المعاني في انسجام هذه السورة الكريمة وتماسكها، إذن إن هذه المعاني شكّلت علاقات دلالية رابطة بين معاني النص المختلفة.

وكان البحث على ثلاثة محاور، الأول تحدّثت فيه عن أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم بشكلٍ عام، والثاني بيّنت في ضوءه مفهوم الانسجام النصي بوصفه معياراً من معايير اللسانيات النصيّة، والمحور الثالث كان دراسة تطبيقية على سورة هود حاولت في ضوءها بيان أثر معاني الاستفهام البلاغية في انسجام هذه السورة الكريمة.

ولا بدّ لي من القول: إنّ كلّ عمل يشوبه النقص والسهو، والكمال لله وحده، فإن أصبت فلّله الحمد والمنّة عليّ أولاً وآخراً، وإن أخطأتُ فمن نفسي وقصور عقلي وهمّتي، ولا ارجو إلاّ رضا الله وغفرانه.

أسلوب الاستفهام في القرآن الكريم

أسلوب الاستفهام من الأساليب البليغة في الاستعمال القرآني، يؤدّي معانياً مختلفة يتوصّل إليها في ضوء فهم السياق، وتتعدد هذه المعاني لتعدّد المعاني المطلوبة في سياقاتها الخاصّة، لكنّ الاستفهام الحقيقي في أصل الوضع كان لمعانٍ محدّدة وأخرجه التوسّع في الاستعمال ليفيد معانياً أخرى، فالاستفهام الحقيقي هو ((طلب ما في الخارج أن يحصل في الذهن من تصوّر أو تصديق موجب أو منفي))[1]، وهذا الطلب في أصل الوضع غير نافعٍ في بيان المعاني البلاغية والأسلوبية لأنّه يؤدّي معانياً وضعت له في الأصل، ويدلّ ذلك على طريقة النحاة في التأصيل والتفريع ولا يدلّ على حرية الإبداع الإسلوبي الذي قد يرى الإلتزام بالأصل قيداً على تعريف المعاني[2].

والاستفهام في القرآن الكريم لا يمكن أن يكون لطلب الحقيقة، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يخفى عليه شيء لا في السموات ولا في الأرض، وإنّما هو يخرج لإفادة معانٍ أخرى تُفهم من السياق وقرائن الأحوال، وقد أكّد ذلك الدكتور تمام حسان من أنّ الاستفهام يخرج لأداء وظائف أخرى في القرآن الكريم، فالاستفهام ((طلب الفهم ولكن أساليب الاستعمال تجعل ذلك أقلّ دلالات الصيغة خطراً وخاصّة في السياق القرآني، لأنّ الله سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو منزّه عن طلب الفهم، ومن ثمّ يكون للاستفهام وظائف أخرى غير ذلك))[3]، وقد بيّن القدماء ذلك، ورصدوا هذه المعاني التي يفيدها الاستفهام خاصّة في القرآن الكريم، وتناولوا ذلك في مصنفاتهم، فالسكاكي رأى أن ألفاظ الاستفهام ((كثيرا ما يتولّد منها أمثال ما سبق من المعاني بمعونة قرائن الأحوال، فيقال: ما هذا؟ ومن هذا؟ لمجرد الاستخفاف والتحقير، وما لي؟ للتعجب، قال تعالى: ((مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ))[4]، وأيّ رجل، هو للتعجب، وأيّما رجل؟ وكم دعوتك؟ للإستبطاء، وكم تدعوني؟ للإنكار، وكم أحلم؟ للتهديد، وكيف تؤذي أباك؟ للإنكار والتعجب والتوبيخ))[5].

فالذي يحدّد وظيفة الاستفهام هو السياق وقرائن الأحوال، وهذا الأنزياح في استعمال الأساليب لتؤدّي وظائف لم تُوضع لها في الأصل هو من أسرار بنية النصوص، ومن أسرار الانسجام الدلالي خاصّة في القرآن الكريم، فكلّ نصّ له وظيفة دلالية، وتتعاضد أساليب النص المكوّنة له من أجل إيصال هذه الدلالة بأجمل الأساليب وأكمل التراكيب.

فلا يمكن أن تكون دلالات الاستفهام إلاّ مناسبة للمقام والسياق، وتتعدّد هذه الدلالات بتعدد المقامات، فهو كثيراً ما يعدّى عن مورد الحقيقة إلى ما يناسب المقام من إفادة: التمنّي، أو العرض، أو التحضيض، أو الزجر، أو التوبيخ، أو التقريع، أو التهديد، أو الوعيد، أو التهكّم، أو التعجب، أو التقرير، أو المبالغة، أو الجحد، أو الإنكار[6].

وشواهد ذلك في القرآن الكريم كثيرة، فلا تجد استفهاماً إلاّ وأفاد معنىً من المعاني المذكورة أو أخرى تُفهم في ضوء سياق النص الذي وردت فيه، ففي قوله تعالى: ((قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ))7، فالهمزة خرجت للإنكار والتقرير والتوبيخ، وقد أشار إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني في قوله: ((لا شبهة في أنّهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقرّ بأنّه منه كان، وقد

1 - المصباح في المعاني والبيان والبديع، ابن الناظم الدمشقي: 149.
2 - البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان: 2/ 193.
3 - المصدر نفسه: 193/2.
4 - النمل: الآية/ 20.
5 - مفتاح العلوم، السكاكي: 424.
6 - ينظر: المصباح في المعاني والبيان والبديع: 150-151.
7 - الأنبياء: الآية/62.

أشاروا له إلى الفعل في قولهم: (أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا)، وقال هو عليه السلام في الجواب: ((بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا))[1]، ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: فعلت أو لم أفعل))[2]، فالاستفهام لا يمكن أن يكون لطلب الحقيقة ووضح ذلك في ضوء السياق الذي ورد فيه، كما فسّره الجرجاني، ثمّ أثبت المعنى الذي أفاده في قوله: ((واعلم أنّ الهمزة فيما ذكرنا تقرير بفعل قد كان وإنكارٌ له لِمَ كان، وتوبيخٌ لفاعله عليه))[3]. فأفاد الاستفهام هذه المعاني الثلاثة بحسب ما أقرّه الجرجاني بما يناسب السياق وينسجم مع دلالاته وأهدافه.

ومن المعاني التي ذكرها السكاكي التوبيخ والتقريع، في قوله تعالى: ((أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ))[4]، إذ رأى أن الاستفهام أفاد ((توبيخاً للمخاطبين وتقريعاً لهم، لكونه سؤالاً في وقت الحاجة إلى الإغاثة عمّن كان يدعى له أنّه يغيث))[5]، وقد انسجمت هذه المعاني مع المعنى العام الذي أرادت السورة الكريمة أن تظهره من خلال هذا الحوار مع المشركين.

ومنه ما يأتي تنزيلاً للسؤال منزلة غيره للتنبيه بألطف وجه على تعدّي السائل سؤالاً هو أليق بحاله أو أهم[6]. كما في قوله تعالى: ((يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ))[7]، ولبيان بعض الأمور الإرشادية في الإنفاق وغيرها يكون على هذه الطريقة أفصح وأبلغ فـ ((سألوا عن بيان ما ينفقون فأُجيبوا ببيان المصرف، وإنّ هذا الإسلوب لربما صادف الموقع فحرّك نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور وأبرزه في معرض المسحور))[8]، فضلا عن ذلك فإنّه جاء متجانساً مع مقتضى السياق العام ومع دلالاته المطلوبة، فكان البيان عنها باستعمال أسلوب الاستفهام له أثره على المتلقي لاستقبال تفاصيل موراد الإنفاق.

الانسجام النصّي

الانسجام من المعايير النصية السبعة التي ذكرها "دي بوجراند" و"ولفجانج دريسلر"، وكلّ حدث تواصلي لكي يكون نصّاً لا بدّ من توفّر هذه المعايير السبعة مجتمعة فيه[9]، وفي ضوءها يمكن التفريق بين النص واللانص، وتبرز أهمية الانسجام من بين هذه المعايير في كونه يمنح مضمون النص تنظيماً دلاليّاً منطقيّاً، حيث تتسلسل المعاني والمفاهيم والقضايا على نحو منطقي مترابط، والنص الذي يوصف بعدم الانسجام، هو ذلك النص الذي لا يستطيع مستقبلوه أن يعثروا على مثل هذا التسلسل[10].

فالانسجام معيار للترابط الدلالي في النص، وإذا فقد النص هذا الترابط حينئذٍ لا يكون منسجماً، وعبّر عنه سعد مصلوح بـ((الاستمرارية الدلالية التي تتجلّى في منظومة المفاهيم، والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم))[11]، وهذه الاستمرارية الدلالية تمنح النص المقبولية من قبل المتلقّي، أمّا العلاقات الرابطة بين المفاهيم الواردة في النص المنسجم فإنّها تكون على أشكالٍ عدّة، منها ما هو موجود في النص من علاقات دلاليّة وأسلوبيّة أحداهما تُحيل على الأخرى من أجل ضمان استمرارية النص كوحدة متماسكة في بنية كبرى سعى النص منذ لحظة إنشائه للوصول لها، ومنها ما هو متعلّق بالمتلقّي الذي فهم النص وأدرك علاقاته المختلفة، وكان يملك معرف سابقة أعانته على تأويله، وإلى ذلك أشار "براون ويول" من أنّ الانسجام خاصيّة غير معطاة في النص، بل يكتشفها القارىء من خلال استحضاره تجاربه السابقة، أي إنّ المتلقّي هو الذي يحكم على انسجام النص من عدمه، وبمعنى آخر يستمدّ الخطاب انسجامه من خلال فهم المتلقّي الذي يقوم بتأويله، فكلّما كان النصّ قابلاً للتأويل كلّما تحقّقت له خاصيّة الانسجام[12].

1 - الأنبياء: الآية/63.
2 - دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني: 89.
3 - المصدر نفسه: 90.
4 - القصص: الآية/62.
5 - مفتاح العلوم: 425.
6 - ينظر: المصباح: 152.
7 - البقرة: الآية/ 215.
8 - المصباح: 152.
9 - introduction to text linguistics, de beaugrand and wolfgang dresslar, longmam, London, 1981; p3
10 - ينظر: حبك النص، منظورات من التراث العربي، محمد العبد، مجلة فصول، الهيأة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، العدد/ 59، ربيع 2002م: 55.
11 - نحو أجرومية النص الشعري، سعد مصلوح، مجلة فصول، عدد/2، مجلد/ 10، 1991م:154.
12 - ينظر: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي: 51-52.

فالانسجام على وفق ما مرّ يكون نسبيّاً يعتمد على القارىء ومعارفه، فربّما يكون نصّاً منسجماً عند متلقٍّ معيّن وغير منسجم عند متلقٍّ آخر، بسبب تباين المعرفة والمعلومات من قارىء إلى آخر، لكن الانسجام حاصل عند القارىء المثالي إذا كانت شروطه وآلياته متوفرة في النص، ويرى محمد الشاوش أنّ آليات الانسجام في النص تشتغل على المستوى الدلالي والتداولي، وهي عبارة عن مقاربات سياقيّة تركّز على العوامل اللغوية التي توجد داخل النص نفسه يستعين بها المتلقّي للحكم على انسجام النص، ومقاربات مقامية إذ النص لا يحتوي على مقومات انسجامه، بل يقوم القارىء بعمليات عقلية معقّدة مرتكزاً على العوامل غير اللغوية الخارجة عن النص لإعادة بناء انسجام النص، ومقاربات سياقية مقاميّة تعتمد على المعطيات اللغوية وغير اللغوية في تحديد الانسجام وهي تُحقّق كلّها في النص من خلال وسائل الاتساق[1].

فالانسجام بوصفه معياراً مسؤولاً عن تتابع وتناسق المعاني الواردة في النص، لذا فإنّه الوسيط لفهم عالم النص والكشف عن علاقاته المختلفة، فالبناء العقلي للنص على وفق آليات الانسجام هو الذي يحدد صورة النص والبنية الكبرى التي تحكم أجزائه الأخرى، ولا يكون النص إلاّ بتفاعل مستمر بين هذه الأجزاء، وقد أشار إلى ذلك د.سعد حسن بحيري، إذ رأى ((أنّ المعنى الكلّي للنص أكبر من مجموع المعاني الجزئية للمتواليات الجزئية التي تكوّنه، ولا تنسجم الدلالة الكليّة له إلاّ بوصفه بنية كبرى شاملة، فالنص ينتج معناه بحركة جدلية أو تفاعل مستمر بين أجزائه، ومن ثمّ ينظر إلى ذلك الانسجام الداخلي بين الدلالات الجزئيّة))[2].

فالنص تحكمه العلاقات والروابط بين الجمل المكوّنة له، وأيضاً ارتباط المعنى بالظروف المحيطة به والقصدية من إنشائها، فعلينا أن ننظر إليه ((نظرة متكاملة لا يستقلّ فيها الشكل عن المضمون، ولا المعنى عن ظروف الاتصال ومقاصد المتكلّمين))[3]، فمن المهم الكشف عن هذه العلاقات التي تحكم النصوص المنسجمة، وتحليلها على وفق النظرة الشاملة للنص، لأنّ ذلك يسهم بشكلٍ ما في تأويلها، وتوضيح مقاصدها، وقد رأى صبحي إبراهيم الفقي أنّ من أسباب اللجوء إلى الدراسات النصّية إدراك العلاقة بين فقرة وفقرة، ونص ونص، وهذا يبرز جليّاً عند النظر إلى السور القرآنية، فلا يمكن إدراك هذه الصلة والترابط من خلال نحو الجملة حسب، على اعتبار أنّ الجملة بنية غير مكتفية بنفسها، فهي بنية افتقار تحتاج غيرها لتنفتح دلالاتها وضوحاً كاملاً، بل من النظرة النصّية بمفهومها الواسع[4].

وقد أدرك البلاغيون العرب قيمة البلاغة على مستوى الربط بين أجزاء النص، أو بين سلسلة الأقوال المؤلّفة لفقرة أو لمجموعة أجزاء من العمل الأدبي[5]، وهي إشارات بسيطة لم تتوسّع بشكلٍ كافٍ لتشمل كل مكونات النص، بل إنّها كانت تأتي عرضاً عند تحليلاتهم البلاغية لآية قرآنية أو بيت من الشعر، وقد أتاحت نظرية علم النص للباحثين الكشف عن مختلف العلاقات التي تُسهم في اتساق وانسجام النصوص، ومباحث علم البلاغة بفروعها الثلاثة هي علاقات شكليّة أو دلالية لها أثر في تماسك النصوص، وقد سعيت في بحثي هذا لأجل إبراز أدوات الاستفهام في السياق القرآني بوصفها علاقات دلالية تسهم في انسجام النص ولها أثرها الواضح وخصوصيتها الأسلوبية في تشكيل النص وفي تدعيم بنيته الدلالية الكبرى.

المعنى العام (الكلّي) لسورة هود

السورة – على ما تشهد به آياتها بمضامينها والاتصال الظاهر بينها – مكية نازلة دفعة واحدة، وقد روى عن بعضهم استثناء قوله تعالى: ((فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ))[6]، فذكر أنها مدنية، وسورة هود تبين أن المعارف القرآنية ترجع بالتحليل إلى التوحيد الخالص كما أن التوحيد يعود بحسب التركيب إلى تفاصيل المعارف الاصلية والفرعية، جميع تفاصيل المعاني القرآنية من معارفها

1 - ينظر: أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، محمد الشاوش، جامعة منوبة، المؤسسة العربية للتوزيع، تونس، ط1: 296/1.

2 - علم لغة النص، المفاهيم والإتجاهات، د. سعد حسن بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر-لونجمان، ط1، 1997م:75.

3 - في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، خليفة بوجادي، بيت الحكمة-الجزائر، ط2، 2012م:128.

4 - ينظر: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2000م: 52.

5 - ينظر: في اللسانيات ونحو النص، إبراهيم خليل، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان –الأردن، ط1، 2007م:185.

6 - نوح: الآية/ 12.

وشرائعها بالتحليل، وهو يعود إليها على ما بها من التفصيل بالتركيب هذا على سبيل الإجمال. ثم تأخذ في بيانه التفصيلي بسمة الانذار والتبشير بذكر ما لله من السنة الجارية في عباده، وايراد أخبار الامم الماضية، وقصص أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى (عليهم السلام)، وما ساقهم إليه الاستكبار عن إجابة الدعوة الالهية والافساد في الارض والاسراف في الامر، ووصف ما وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أوعد الله به الذين كفروا وكذبوا بالايات، وتبين في خلال ذلك أمورا من المعارف الالهية الراجعة إلى التوحيد والنبوة والمعاد[1].

وأسلوب الاستفهام من الأساليب التي اعتمدتها السورة الكريمة من أجل بيان أغراضها المنسجمة مع معناها العام، وسنبيّن أثر هذا الأسلوب في إنسجام هذه السورة في ضوء دراسة سياقاته المختلفة التي وردت في السورة.

أثر إسلوب الاستفهام في الانسجام النصي لسورة هود

الغرض من الاستفهام هو طلب معرفة شيء مجهول من قبل السائل، لكن بتتبّع أسلوبه في سورة هود وسور القرآن الأخرى نجد أنّه يخرج إلى معانٍ أخرى مجازية مستفادة من السياق الذي وردت فيه، وهذه المعاني تنسجم دلالياً مع معنى النص الكلّي الذي وردت فيه، وبذلك تُسهم في تماسكه وتلاحمه، ومن هذه المعاني التي رُصدت في سورة هود: التوبيخ والإنكار والنفي والاختبار والتقرير والتعجب والنهي والتوبيخ، وغيرها من المعاني الأخرى التي أسهمت في دعم المعنى الكلّي لسورة هود وأسهمت في انسجامه.

وأدوات الاستفهام التي وردت في السورة الكريمة هي: (أيّ) مرة واحدة، والـ (همزة) تكررت ثلاث عشرة مرة، و(هل) تكررت مرتين، و(من) ثلاث مرات، و(ما) مرة واحدة، ومواضع أسلوب الاستفهام بصورة إجمالية هي عشرون موضعاً، وسيتم دراسة هذه الأسايب على وفق أدوات الاستفهام وبيان أثرها في انسجام النص القرآني كما وردت في سورة هود.

1- أيّ الاستفهاميّة.

قال سيبويه: ((اعلم أن (أي) مضافاً وغير مضاف بمنزلة (مَن)، ألا ترى أنّك تقول: أيٌّ أفضل؟ وأي القوم أفضل؟ فصار المضاف وغير المضاف يجريان مجرى مَنْ))[2]، و(أي) للسؤال عمّا يميّز أحد المتشاركين في أمرٍ يعمّهما، يقول القائل: عندي ثياب، فتقول: أي الثياب هي؟ فتطلب منه وصفاً يميّزها عندك عمّا يشاركها في الثوبيّة، قال تعالى حكاية عن سليمان: ((أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا))[3]، أي: الإنسي أم الجنّي؟ وقال حكاية عن الكفار: ((أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا))[4]، أي: أنحن أم أصحاب محمد؟[5].

واستفهم بـ (أي) في موضع واحد في سورة هود، في قوله تعالى: ((وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ))[6]، وأشار الزمخشري إلى أن الاستفهام أفاد تشريف المتقين وتنبيهاً على مكانتهم، لأنّهم خصّوا بالذكر دون غيرهم، لأنّهم هم الأحسن عملاً كما مستفاد من سياق الاستفهام، فأعمال المؤمنين تتفاوت من حسن إلى أحسن، وأعمال المؤمنين مع الكافرين فتفاوتها من حسن إلى قبيح، والذين هم أحسن عملاً هم المتقون، لذا خصّوا بالذكر دون غيرهم[7].

أمّا السيد الطبأطبآئي رأى أن الاستفهام للإختبار والامتحان، كما في قوله: ((وقوله: (أيكم أحسن عملا) بيان للاختبار والامتحان في صورة الاستفهام والمراد أنه تعالى خلق السماوات والارض على ما خلق لغاية امتحانكم وتمييز المحسنين منكم من المسيئين))[8].

1 - ينظر: تفسير الميزان: 10/135-136.
2 - الكتاب، سيبويه: 2/398.
3 - النمل: الآية/ 38.
4 - مريم: الآية/73.
5 - ينظر: مفتاح العلوم: 422-423.
6 - هود: الآية/7.
7 - ينظر: الكشاف، الزمخشري: 2/ 361.
8 - تفسير الميزان: 10/ 151.

على مستوى تركيب الجملة جاءت (أي) مضافة إلى الضمير الكاف، وهي تعرب مبتدأ لمجيء بعدها اسم التفضيل (أحسن)، والكاف ضمير عن جميع الناس المخاطبين بالرسالة السماوية، فالخطاب من الله سبحانه وتعالى، فإن كان يفيد العموم فتقدير الاستفهام: أيّ الناس، وإن كان يفيد الخصوص فتقديره: أي المسلمين. لذا فالضمير يحيل إلى مجموعة المخاطبين، وسواء أكان الاستفهام يفيد الاختبار أم التشريف فإنّه يؤكّد البنية النصيه بالاحالة إلى إلتزام توحيد الله سبحانه وتعالى من أجل الفوز برضاه، وما عرض قصص الأنبياء في هذه السورة الكريمة إلاّ إشارة إلى صنفين من الناس: الذين آمنوا والذين كفروا، مع بيان أنّ الله سبحانه وتعالى هو من دبّر الخلق بإرادته وقدرته، فيجب أن تكون العبادة له وحده.

فالمعنى الذي أفاده الاستفهام أسهم في انسجام النص القرآني، وكان جزءاً من الدلالة الكليّة للنص التي أراد الله عزّ وجلّ إيصالها، وقد أشترك في جعل النص متماسكاً دلالياً لأنّ المعاني تخدم بعضها البعض داخل السياق.

2-همزة الاستفهام.

الهمزة من حروف الاستفهام، وهي أم الباب والأصل فيها أن لا يليها إلاّ الفعل، إلاّ إنّهم توسّعوا فيها، فأجازوا مجيء الاسم بعدها، لأصالتها في باب الاستفهام[1]، وذهب سيبويه في تعليل ذلك إلى أنّها حرف الاستفهام الذي لا يزول عنه إلى غيره وليس للاستفهام في الأصل غيره[2].

وأغلب مواضع الاستفهام الواردة في سوة هود كانت باستعمال (الهمزة)، وأفادت معانٍ عدّة بحسب السياق الذي وردت فيه بما ينسجم مع دلالات السورة الكريمة.

ففي قوله تعالى: ((أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ))[3]، أفاد الاستفهام بالهمزة المضمرة التوبيخ والإنكار، وتقدير الكلام (بل أيقولون افتراه...)، ف (أم) منقطعة بمعنى (بل)، التي للإضراب للانتقال من غرض إلى آخر، والكلام في أبطال مزاعم المشركين، فإنّهم قالوا: هذا كلام مفترى، وقرعهم بالحجّة، والاستفهام إنكاري[4]، جاء ليتمّم المعنى في الردّ على المشككين بالقرآن الكريم، فتحداهم الله سبحانه وتعالى على أن يأتوا (بعشرِ سورٍ مثله مفترياتٍ)، وهم لا يستطيعون ذلك لأنّه كلام الله المحكم، فجاء معنى الاستفهام منسجماً مع سياق الآية ومع المراد من المعنى العام من السورة وهو الأيمان بالله وبالنبوّة، فالإيمان بمعجزة القرآن إقرار بالتوحيد وبالرسالة المحمّدية.

وفي قوله تعالى: ((أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ))[5]، أفاد الاستفهام بـ (الهمزة) الإنكار، والمعنى: ليس من كان كذا وكذا كغيره ممن ليس كذلك وأنت على هذه الصفات فلا تك في مرية من القرآن، والجملة تفريع على ما مضى من الكلام الذى هو في محل الاحتجاج على كون القرآن كتابا منزلا من عند الله سبحانه، و(من) مبتدأ خبره محذوف والتقدير: كغيره، أو ما يؤدى معناه[6].

فالإنكار أسهم مع التفريع في تلاحم دلالات النص القرآني، وأكّد معنى الاحتجاج السابق من أن القرآن الكريم كتاب الله المنزّل على رسوله الكريم، لذا ختمت الآية الكريمة بالنهي عن الشك الذي يثيرة الذين لا يؤمنون بالله ولا ينصاعون للحق.

1 - ينظر: المفصّل في علم اللغة العربية، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: محمد عز الدين السعيدي، (د.م)، ط1، 1990م:380

2 - ينظر: الكتاب، سيبويه، أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1425هـ- 2004م: 99/1.

3 - هود: الآية/13.

4 - تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التنوسية للنشر- تونس، 1984م:12/ 19.

5 - هود: الآية/17.

6 - ينظر: الميزان: 10/ 183.

وأفاد الاستفهام بـ (الهمزة) الإنكار والتوبيخ في قوله تعالى: ((مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ))[1]، وأفاد الاستفهام بـ (هل) النفي، وجملة الاستفهام واقعة موقع البيان للغرض من التشبيه وهو نفي استواء حالهما، ونفي الاستواء كناية عن التفضيل بين الفريق الممثّل بالسميع والبصير على الفريق الممثّل بالأعمى والأصم[2].

فكان الاستفهام بـ (الهمزة) توبيخاً للذين لا يفرّقون بين الفريقين، وإنكار لهم، من المؤكّد أن هناك فرقٌ واضح بين الأعمى والبصير وبين والأصم والسميع، وهذا يدعو الناس إلى التنبّه واتباع الحق، لذا جاء الاستفهام ليؤكّد ذلك الفرق، وهو منسجمٌ مع دلالة السورة الكريمة بشكلٍ عام، لأنّها تدعو إلى توحيد الله سبحانه وتعالى والتمسّك بالمعارف الإلهيّة المتفرّعة عن ذلك، فكأنّ من ترك العمل بها أعمى وأصم.

وتكرر الاستفهام بـ (الهمزة) مرتين في قوله تعالى: ((قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ))[3]، وأفاد الأول في (أرأيتم) التقرير، والاستفهام عن الرؤية بمعنى الإعتقاد، ومعناه (أخبروني)، ولكنّه لا يستعمل إلاّ في طلب من حالُه حال من يجحد الخبر[4]، وأفاد الثاني في (أنلزمكموها) إنكاراً لوجود الفعل، ليس المعنى: أنا ليس بمثابة من يجيء منه هذا الإلزام وإن غيرنا يفعل ذلك، جلّ الله عن ذلك، بل المعنى: إنكار أصل الإلزام[5]، والإنكار على معنى: لم يكن، أو لا يكون[6].

والآية الكريمة تصوّر خطاب نوح عليه السلام لقومه، وهو يتلطّف في توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة حساسيتهم لإثارة القيم الخفيّة عليهم، والخصائص التي يغفلون عنها في أمر الرسالة والإختيار لها، ويبصّرهم بأنّ الأمر ليس موكولاً إلى الظواهر السطحيّة التي يقيسون بها، وفي الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ القويم العظيم، مبدأ الإختيار في العقيدة، والإقتناع بالنظر والتدبّر، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء[7].

فغرضا الاستفهام في صدر الآية الشريفة وفي ذيلها جاء منسجماً مع المراد من المعاني التي نزلت السورة بها، فخطاب نوح عليه السلام لقومه يوضّح مبدأً مهمّاً من مباديء الإسلام، وهو عدم الإكراه، فالإيمان خيار لا فائدة منه إذا لم يكن عن إعتقاد راسخ، وهو عقيدة وليس فكرة متغيّرة تُغيرها الأحداث والأزمان، وهذا الإعتقاد هو من مباديء التوحيد الذي تريد السورة الكريمة إقراره في النفوس، ودعوة الأنبياء مهما اختلفت ظروفها وأزمانها هي دعوة لتوحيد الله سبحانه وتعالى كما هو يريد، فالمعنى الذي خرج له الاستفهام أسهم في انسجام دلالاته وكان رابطاً معنويّاً لنسيج السورة الدلالي.

وتكرر الاستفهام أيضاً مرتين في قوله تعالى: ((وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ))[8]، وأفاد الاستفهام بـ (من) النفي، بمعنى: لا أحد يستطيع أن يحميني، وينجيني من عذاب الله، وأفادالاستفهام بـ (الهمزة) (أفلا تذكّرون) الإنكار والتوبيخ[9]، والآية هي في بيان استمرار الخطاب بين النبي نوح عليه السلام وقومه، والاستفهام بيّن رفض نوح عليه السلام لمطلب قومه بطرد المؤمنين الذين معه، وأكّد ذلك في الآية السابقة في قوله تعالى: ((وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ))[10]، ثمّ جاء التوبيخ لهم بأنّهم قومٌ جاهلون، والإنكار لمطلبهم البعيد عن الواقع، الذي يبيّن تكبرهم وعدم انصياعهم للحق، وهذه المعاني التي عبّر عنها الاستفهام جاءت منسجمة مع دلالات السورة الكريمة، وأسهمت في ترابطها وتفاعلها وانسجامها مع باقي علاقات النص الدلالية.

1 - هود: الآية/24.
2 - ينظر: التحرير والتنوير: 12/ 43.
3 - هود: الآية/28.
4 - ينظر: المصدر نفسه: 51/12.
5 - ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق: د. نصر الله حاجي مفتي، دار صادر- بيروت، ط1، 1424هـ- 2004م: 184.
6 - مفتاح العلوم: 426.
7 - ينظر في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق- القاهرة، ط32، 1423هـ - 2003م:12/ 1873-1874.
8 - هود: الآية/30.
9 - ينظر: معاني القرآن الكريم، إبراهيم عبد الله رفيدة وآخرون، طرابلس- ليبيا، ط1، 1989م: 2/ 261.
10 - نوح: الآية/ 29.

والاستفهام الإنكاري بـ (الهمزة) تكرر في قصة النبي صالح عليه السلام، في قوله تعالى: ((قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ))[1]، ورأى صاحب الميزان أنّ الاستفهام إنكارى بداعي المذمة والملامة، والاستفهام في مقام التعليل لما قبله محصّله أن سبب يأسهم منك اليوم أنك تنهاهم من إقامة سنة من سنن ملّتهم وتمحو أظهر مظاهر قوميتهم فإن اتخاذ الاوثان من سنن هذا المجتمع المقدسة، واستمرار إقامة السنن المقدسة من المجتمع دليل على أنهم ذوو أصل عريق ثابت، ووحدة قومية لها استقامة في الرأى والارادة[2]، وكأنّ صالحاً عليه السلام قد سقط من نظرهم حينما دعاهم إلى عبادة الله وحده، وكان صاحب جاه عندهم قبل هذا[3]، فجاء الإنكار بـ (الهمزة) منسجماً مع الدعوة إلى التوحيد من قبل النبي صالح عليه السلام، وأيضاً يتلاقى مع الإنكار الذي تميزت به قصة نوح عليه السلام، فحقّق تماسك النص مع دلالات السورة الكريمة.

وتتلاقى نتائج دعوة الأنبياء لأقوامهم، وتتشابه أيضاً إجابات الأنبياء وأساليبهم، لأنّهم مأمورون من إلهٍ واحد، كما في قوله تعالى على لسان صالح عليه السلام: ((قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ))[4]، الاستفهام بـ (الهمزة) أفاد الإنكار أيضاً، لأنّ الاستفهام بفعل الرؤية جاء متبوعاً بجملة استفهامية فكان معناه: (يا ترى)، على معنى الإنكار[5]، والاستفهام بـ (مَن) أفاد النفي، أي لا أحد ينصرني إن عدلت من يقيني إلى شككم، وهو شبيه لردّ نوح عليه السلام على قومه، في قوله تعالى: ((مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ))[6]، فحقّق الاستفهام الانسجام المطلوب في ضوء معانيه التي أفادها على وفق ما أراد النص القرآني أن يصرّح به من مقاصد مختلفة.

وفي قوله تعال: ((قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ* قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ))[7]، تكررت (همزة) الاستفهام مرتين، في الحوار بين الملائكة الذين أُرسلوا إلى إبراهيم عليه السلام وزوجته، فالاستفهام الأول (أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوز) أفاد التعجب، فهي قد صرّحت بتعجبها أن يكون لها ابنٌ وهي عجوز بعد أنّ بشرها الملائكة بإسحاق ومن بعده يعقوب[8]، وأفاد الاستفهام الثاني (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) النهي، أي: نهوها عن التعجب لأنّهم أهل بيت النبوّة ومحل الرحمة والبركة، والله سبحانه وتعالى قد خصّكم بالنعم والكرامة، وهو من قدرة الله وحكمته وليس بمكان عجب[9]، وواضح أنّ معنى الاستفهام الذي خرج له في الآيتين الكريمتين يؤكّد قدرة الله سبحانه وتعالى، ولا يستحق غيره العبادة، لأنّه صاحب النعمة والألطاف على عباده، فنرى انسجام هذه المعاني بترابطها مع معاني نص سورة هود محقّقة الوحدة النسقية للنص.

وفي قوله تعال: ((وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ))[10]، أفاد الاستفهام بالهمزة مع فعل النفي (ليس) الإنكار والتوبيخ، والمعنى ((أليس منكم رجل يهتدي إلى سبيل الحقّ، وفعل الجميل، والكفّ عن السوء، وفي ذلك توبيخ عظيم لهم حيث لم يكن منهم رشيد البتة))[11]، والكلام موجّه إلى قوم النبي لوط عليه السلام، وقد أنكر عليهم فعلهم ووبخهم، لأنّهم يطلبون أمراً منكراً وقد عرفوا بشذوذهم دون أن يكون لنصائح لوط عليه لسلام أي أثر فيهم، وهذا المعنى الذي أفاده الاستفهام ينسجم مع واقع قصة لوط عليه السلام مع قومه، ومن ثمّ يؤكّد انسجام نص السورة، لأنّ دعوة الأنبياء واحدة، وهي الدعوة إلى التوحيد ونبذ الإشراك والتخلّي عن الممارسات المنكرة كما كان مشهوراً عن هؤلاء القوم.

1 - هود: الآية/62.
2 - ينظر: الميزان: 10/ 312.
3 - ينظر: الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، فتحي عبد الفتاح الدجنّي، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1984م:273.
4 - هود: الآية/ 63.
5 - ينظر: البيان في روائع القرآن، مكتبة الأسرة، (د.م)، 2003م، تمام حسّان،: 215/2.
6 - هود: الآية/ 30.
7 - هود: الآيتان/ 72-73.
8 - ينظر:التحرير والتنوير: 12/ 191.
9 - ينظر الكشاف: 2/ 388-389.
10 - هود: الآية/ 78.
11 - البحر المحيط: 247/5.

أمّا الاستفهام الوارد في الآية (81) جاء بـ (الهمزة) الداخلة على فعل النفي (ليس) أيضاً إلاّ إنّه أفاد التقرير، في قوله تعالى: ((قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ))[1]، ومعناه أن الصبح قريبٌ جداً، وهو موعد هلاكهم، وفيه أيضا التسلية للوط عليه السلام، وبشارة للخلاص من قومه ومن أفعالهم المخزية، وقد تحقّق وعد الله ونجا لوط مع من آمن معه، وهذه المعاني التي حقّقها الاستفهام ترتبط مع معاني السورة الكريمة بالدعوة الى الله وبتحقق الوعد الإلهي، وإن الله سبحانه وتعالى منجي عباده المخلصين من أفعال أعدائه وتجبّرهم وكفرهم، لأنّ لوط عليه السلام ضاق ذرعاً بما كان يفعلون.

وفي الآية الكريمة ((قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ))[2] أفاد الاستفهام بـ (الهمزة) التهكم والاستهزاء، وهذا ظاهر في خطاب قوم شعيب عليه السلام له، بعد أن دعاهم لعبادة الله الواحد الأحد، فأجابوه متهكمين مستهزئين به وبصلاته، التي أرجعوا لها فعل الأمر بترك ماكانوا يعبدون من أصنام هم وآباؤهم، ورأى الزمخشري أنهم ساقوا الكلام مساق السخرية والهزء، وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته، وأرادوا أن هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته، وقد أمرك به هذيان ووسوسة شيطان، وهو صلواتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك[3]. وتصوّر الآية الكريمة مدى السخرية والاستهزاء الذي يلقاه الأنبياء من أقوامهم بعد دعوتهم إلى عبادة الله والتوحيد، والاستفهام بيّن هذا المعنى في ضوء السياق الذي ورد فيه، وأسهم في تماسك وانسجام السورة الكريمة، لأن هذا المعنى يلتقي مع معاني دعوات الأنبياء ونتائجها التي تناولتها السورة بالبيان والتوضيح.

والاستفهام بـ (الهمزة) أفاد التقرير والتنبيه في قوله تعالى: ((قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ))[4]، والمعنى ((أخبروني إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربّي وكنت نبيّاً على الحقيقة، أيصحّ لي أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكفّ عن المعاصي؟ والأنبياء لا يبعثون إلاّلذلك))[5]، وهو لتنبيههم على حاله عليه السلام، فهو نبيّ ومن تكلفيه أن ينهاهم عن المعاصي ويأمرهم بالمعروف وبالإيمان بالله وترك ما هم عليه من عبادة الأوثان، وهو نفس خطاب نوح عليه السلام لقومه في الآية (28) من السورة، فالتقرير والتنبيه ينسجم مع المعاني العامّة للسورة الكريمة، وهي تبيّن حسن أدب الأنبياء في مخاطبة أقوامهم ومجادلتهم بالحسنى من أجل العودة لله سبحانه وتعالى وترك عبادة الأوثان.

وفي قوله تعالى: ((قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ))[6] أفاد الاستفهام الإنكار والتوبيخ، وهذا نقض من شعيب لقولهم: ((ولولا رهطك لرجمناك))[7]، أي كيف تعززون رهطي وتحترمون جانبهم، ولا تعززون الله سبحانه ولا تحترمون جانبه وإنّي أنا الذى أدعوكم إليه من جانبه؟ فهل رهطي أعزّ عليكم من الله؟ وقد جعلتموه نسياً منسيّاً وليس لكم ذلك وما كان لكم أن تفعلوه إنّ ربّي بما تعملون محيط[8]، فالتوبيخ الشديد لهم رافقه التعجب من حالهم وهم يهابون قومه دون الله عزّ وجل، وهذا حال أقوام الأنبياء الذين ذكرتهم السورة الكريمة، فجاء المعنى منسجماً معها ومع معاناة الأنبياء مع أقوامهم.

فحققت همزة الاستفهام معانيها البلاغيّة في السورة بما ينسجم ودلالاتها وما تريد أن تقدّمه من معانٍ وعبرٍ في ضوء القصّ القرآني، ومعانيها كلّها كانت روابط مهمّة في بناء معنى السورة العام وتفاعلها النصّي.

1 - هود: الآية/ 81.
2 - هود: الآية/ 87.
3 - ينظر: الكشاف: 2/ 395-396.
4 - هود/ الآية/88.
5 - الكشاف: 2/396-397.
6 - هود: الآية/92.
7 - هود:الآية/91.
8 - ينظر: الميزان:10/375.

3- ما الاستفهاميّة

(ما) اسم استفهام للسؤال عن الجنس، تقول: ما عندك؟ بمعنى: أي أجناس الأشياء عندك؟ وجوابه: إنسان أو فرس أو كتاب أو طعام، وفي التنزيل: (فَمَا خَطْبُكُمْ)[1]، بمعنى أي أجناس الخطوب خطبكم، وأيضاً: (ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي)[2]، أي: أي من في الوجود تؤثرونه في العبادة[3]. ويخرج الاستفهام بـ (ما) عن معناه الحقيقي لإفادة أغراض بلاغية مستفادة من السياق تشكّل روابط دلالية مهمّة تسهم في انسجام النصوص.

وجاء الاستفهام بـ (ما) في موضع واحد في سورة هود، في قوله تعالى: ((وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ))[4]، والاستفهام في (ما يحبسه) نقل لنا حديث الكافرين فيما بينهم، وهو يبيّن تكذيبهم واستهزائهم، ويعتقدون أنّه لو كان صدقاً لما تأخّر عنهم[5]. وسألوا (ما يحبسه)، أي: العذاب، استعجالاً له تكذيباً واستهزاءً، وهذا تهديد لهم بأنّهم آتيهم عن قريب فليعتدّوا لذلك[6].

والتكذيب والاستهزاء من طبيعة الأمم التي بعث لها الله سبحانه وتعالى الأنبياء، فأكثرهم كانوا على هذه الشاكلة، وهذا نتاج عدم إيمانهم بدعوة الأنبياء، وفيه من التسلية للرسول صلّى الله عليه وآله، وهي سنّة الأمم أنّهم لا يسمعون دعوة الحق بل يحاربوها ويقفوا على الضدّ منها، لذا ذيّلت الآية بالتهديد من قبل الله سبحانه وتعالى وأنّ يوم عذابهم قريب فلا يستعجلوه، ومعنى الاستفهام في الآية الكريمة جاء منسجماً مع البنية الدلالية العميقة لسورة هود، فالاستهزاء والتكذيب يقع من جميع الأمم التي تناولت السورة قصصهم، فالمعنى كان رابطاً مهمّاً أدّى إلى تماسكها في ضوء التشابك والتشابه بين الوظائف التي أدّاها أسلوب الاستفهام.

4- هل الاستفهاميّة

(هل) حرف استفهام تدخل على الأسماء والأفعال لطلب التصديق الموجب[7]، وتستعمل (هل) لطلب التصديق فقط ويمتنع معها ذكر المعادل[8]، وقد تأتي لإفادة معانٍ بلاغيّة في سياقات خاصّة وبذلك تخرج عن الاستفهام الحقيقي إلى المجازي، وهذه المعاني البلاغية تتناسب مع سياقات النص الذي وردت فيه، وبذا تكون روابط تربط أفكار النص ومعانيه وتسهم في إنسجام دلالاته المختلفة.

كما جاء في قوله تعالى: ((فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ))[9]، وأفادت (هل) الأمر في الآية الكريمة بمعنى: (أسلموا)، والأمر من ضمن المعاني البلاغية المستفادة من الاستفهام ب (هل)[10]. وهو ((أمر بالإسلام في صورة الاستفهام))[11]، ومعنى الأمر بالإسلام يتفق مع غرض السورة الكريمة التي تدعو إلى عبادة الله وتوحيده وذكر الأقوام التي أُرسل إليها الأنبياء، فليس بعد الإقرار بـ (لا إله إلاّ الله) إلاّ الإسلام والتسليم للواحد الأحد، فجاء المعنى منسجماً مع معاني سورة هود، وكان رابطاً معنوياً أسهم في وحدة النص وتماسكه.

والاستفهام بـ (هل) في قوله تعالى: ((مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ))[12] أفاد النفي، وقد تمّ ذكره وفائدته البلاغية والنصية في مضان الحديث عن (همزة) الاستفهام.

---

1 - الحج: الآية/57.
2 - البقرة: الآية/ 133.
3 - ينظر: مفتاح العلوم: 420.
4 - هود: الآية/ 8.
5 - ينظر: الكشاف: 362/2.
6 - ينظر: تفسير القرآن العظيم: الحافظ بن إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 1997م: 398/12.
7 - ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوه - محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط1، 1992م: 341.
8 - ينظر: علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية- بيروت، 1974م: 98-99.
9 - هود: الآية/ 14.
10 - ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني: 346.
11 - الميزان:173/10.
12 - هود: الآية /24.

5- مَن الاستفهامية.

(مَنْ) للسؤال عن الجنس من ذوي العلم، تقول مَن جبريل؟ بمعنى أبشرٌ هو أم ملكٌ أم جنيٌّ، وكذا السؤال في قوله تعالى: ((مَنْ ربُكما يا مُوسى))[1]، أراد: مَن مالككما ومدبّر أمركما؟ منكراً لأن يكون لهما ربّ سواه لادعائه الربوبية لنفسه[2].

وتكررت (مَن) الاستفهامية ثلاث مرات في سورة هود، الأول في قوله تعالى: ((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ)[3]، الاستفهام أفاد النفي والإنكار الشديد للمفترين على الله الكذب، فكانوا بالغين غاية الظلم حتّى لقد يسأل عن وجود فريق أظلمَ منهم سؤالَ إنكارٍ يؤول إلى معنى النفي، أي لا أحد أظلم منهم[4]. وهم الذين قالوا أن القرآن مفترى من قبل الرسول صلّى الله عليه وآله على الله كما ورد في الآيات السابقة، فالنفي المستفاد من الاستفهام جاء منسجماً مع معاني سورة هود، ولرد تهمة المشركين الذين قالوا أن القرآن هو من تأليف الرسول وليس من الله سبحانه وتعالى، لذا وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنّهم أظلم الناس، فكان معنى النفي رابطاً حقّق الانسجام بين دلالات عموم السورة.

والموضع الثاني والثالث في قوله تعالى: ((وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ))[5]، وقوله تعالى: ((قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ))[6]، قد تمّ الحديث عنهما سابقاً في مضان الحديث عن الاستفهام بـ (الهمزة)، وبيان فائدتهما البلاغية والنصيّة على مستوى انسجام نص السورة الكريمة.

وتأسيساً على ما تقدّم، يظهر أنّ البلاغة العربية بمختلف مباحثها يمكن أن تكون علاقات مهمّة تسهم في تماسك النصوص وتلاحمها إذا ما كان استعمالها موافقاً لنسيج النصوص ودلالاتها المختلفة، فمعاني الاستفهام البلاغية في سورة هود جاءت منسجمة مع دلالات السورة بشكلٍ عام، وتوافقت معها لتكون علاقات رابطة منحت نص السورة الانسجام الدلالي المطلوب، وهذا واضح بشكلٍ جليٍّ في ضوء تتبّع هذه المعاني ومدى إلتقائها مع معاني السورة المختلفة.

الخاتمة

وفي ضوء ما تقدّم من الحديث، يمكننا أن نكشف عن أهمّ النتائج التي توصّل إليها البحث:

- إن الاستفهام في القرآن الكريم- خاصّة في سورة هود- خرج عن معانيه الحقيقيّة المعروفة في الدراسات النحوية إلى إفادة أغراضٍ أخرى مستفادة من السياق والاستعمال.
- شكّلت هذه الأغراض التي أفادها الاستفهام علاقات دلالية كان لها أثر واضح في انسجام النص القرآني.
- إن الانسجام النصي وهو معيار مهم من معايير اللسانيات النصية لا يمكن دراسته على وفق علاقات مقرّرة مسبقاً، إذ إن لكل نصٍّ مميزاته الخاصة وسمات ينماز بها عن غيره، لذا لا يمكن حدّ العلاقات التي تسهم في انسجام نص ما، ويبقى للباحثين نظرهم في الكشف عن هذه العلاقات وبيان أثرها.
- إن أسلوب الاستفهام والأغراض التي أفادها في سورة هود كان لها أثر في انسجام هذه السورة الكريمة، إذ ارتبطت هذه المعاني مع معاني السورة المختلفة بعلاقات دلالية مهمّة جعلت سورة هود وكأنّها نسيج واحد مترابط منسجم مع بنية السورة الكبرى ونسيجها العام وأهدافها ومقاصدها العامّة.

1 - الشعراء: الآية/ 29.
2 - ينظر: مفتاح العلوم: 422.
3 - هود: الآية/18.
4 - ينظر: التحرير والتنوير: 12/ 32.
5 - هود: الآية/30.
6- هود: الآية/ 63.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- أصول تحليل الخطاب في النظرية النحوية العربية، تأسيس نحو النص، محمد الشاوش، جامعة منوبة، المؤسسة العربية للتوزيع– تونس، ط1.
- الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، فتحي عبد الفتاح الدجنّي، مكتبة الفلاح، الكويت، ط1، 1984م.
- البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيّان الأندلسي الغرناطي، دار الفكر، بيروت، ط2، 1987م.
- البيان في روائع القرآن، مكتبة الأسرة، (د.م)، 2003م، تمام حسّان.
- تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التنوسية، تونس، 1984م.
- تفسير القرآن العظيم: الحافظ بن إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1997م.
- الجنى الداني في حروف المعاني، الحسن بن قاسم المرادي، تحقيق: فخر الدين قباوه – محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1992م.
- حبك النص، منظورات من التراث العربي، محمد العبد، مجلة فصول، الهيأة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، ع 59، 2002م.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، عبد القاهر الجرجاني، صحّحه: الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود التركزي، علّق عليه: محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط3، 2001م.
- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دراسة تطبيقية على السور المكية، صبحي إبراهيم الفقي، دار قباء، القاهرة، 2000م.
- علم المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، 1974م.
- علم لغة النص، المفاهيم والإتجاهات، د. سعد حسن بحيري، الشركة المصرية العالمية للنشر–لونجمان، ط1، 1997م.
- في اللسانيات التداولية، مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، خليفة بوجادي، بيت الحكمة، الجزائر، ط2، 2012م.
- في اللسانيات ونحو النص، إبراهيم خليل، دار المسيرة، عمان، ط1، 2007م.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط32، 2003م.
- الكتاب، سيبويه، أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 2004م.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوازمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ط2، 2001م.
- لسانيّات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991م.
- المصباح في المعاني والبيان والبديع، أبي عبد الله بدر الدين بن مالك الدمشقي الشهير بابن الناظم،(ت:686هـ)، ت: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2001م.
- معاني القرآن الكريم، إبراهيم عبد الله رفيدة وآخرون، طرابلس– ليبيا، ط1، 1989م.
- مفتاح العلوم، السكاكي (ت:626هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م.
- المفصّل في علم اللغة العربية، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق: محمد عز الدين السعيدي، (د.م)، 1990م.
- الميزان في تفسير القرآن، السيد محمد حسين الطبأطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1973م.
- نحو أجرومية النص الشعري، سعد مصلوح، مجلة فصول، عدد/2، مجلد/ 10، 1991م.
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، تحقيق: د. نصر الله حاجي مفتي، دار صادر، بيروت، ط1، 2004م.
- introduction to text linguistics, de beaugrand and wolfgang dresslar, longmam, London, 1981